

## الحمد لله

يبدأ المصحف . بفاتحة الكتاب . وتبدأ الفاتحة بانفطى ( الحمد لله ) .  
والمتفق عليه ، أن فاتحة الكتاب هي السورة الثانية التي نزلت كاملة بعد  
سورة « المدثر » التي نزلت بعد آيات ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق  
الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ) ، فلماذا بدأ كتاب المسلمين  
بحمد الله ، ولم يبدأ مثلاً بأن لا إله إلا الله ، وهو ما بعث به رسول الله ،  
صلى الله عليه وسلم ، وما أمر بأن يقاتل الناس حتى ينطقوا بها ، معلنين  
أنهم يؤمنون بمدلولها ؟

وهل صحيح أن الحمد لله ، كما قال جميع المفسرين ، هي  
فقط البناء الجميل على الله عز وجل : والإقرار بأنه مستحق للحمد على  
كل ما يحمد عليه سواه من الصفات والنعم ، أو أن لله حكمة أكبر :  
من أن نشئ عليه ، وعلى صفاته ، وعلى نعمائه ، إقراراً بربوبيته ،  
وإذعاناً لألوهيته ، وشعوراً بعبوديتنا لذاته ، وخضوعاً لأحكامه وآياته .  
لننظر أولاً إلى ما قاله المفسرون وهو في جملة متشابهة .

جاء في القرطبي . عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي ،  
الحمد له » . وعن أنس : « إن الله ليرضى عن العبد لياكل الأكلة  
فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وعن أنس أيضاً :  
« ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل  
مما أخذ » . وعن أنس كذلك : « لو أن الدنيا بخذا فيرها بيد رجل من  
أمتي ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك » . وشرح  
ذلك أبو عبد الله فقال : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا . ثم أعطى

على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية . هي من الباقيات الصالحات ، وقيل في بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ . فصير الكلمة إعطاء من العبد ، والدنيا أخذاً من الله ، فهذا من التدبير . كذلك يجري في الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكلاهما من الله في الأصل ، الدنيا منه والكلمة منه ، أعطاه الدنيا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بها في الآخرة .

وروى ابن ماجه عن ابن عمران : أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ( صعب فهمها على الملكين ) فصعدا إلى السماء وقالوا : يا ربنا إن عبدك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله عز وجل - وهو عالم بما قال عبده - ماذا قال عبدي ؟ قالوا : يا رب ، إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما اكتبها كما قال عبدي ، حتى يلتقاني فأجزيه بها .

وعن أبي مالك الأشعري : الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض .

وقال القرطبي : اختلف العلماء أيما أفضل : قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ، لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله ، ففي قوله الحمد لله توحيد وحمد ، وفي قوله لا إله إلا الله ، توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ، لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » .

ثم قال القرطبي : والحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل : والألف واللام لاستغراق الجنس من الخامد ، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى . والصفات العلا .

وقد ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد - على حد رواية الطبري - إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد ، وقال بعض العلماء إن الشكر أعم من الحمد . لأنه باللسان والجوارح والقلب ، والحمد إنما يكون باللسان خاصة . وقيل الحمد أعم . لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعم من الشكر ، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد ، وروى عن ابن عباس أن « الحمد لله كلمة كل شاكر ، وأن الله قال لنوح عليه السلام ( فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ) ، وقال إبراهيم عليه السلام ( الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق ) ، وقال في قصة داود وسليمان : ( وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ) ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ) ، وقال أهل الجنة : ( الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ) ، ( وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ) ، فهي كلمة كل شاكر .

وعقب على ذلك كله القرطبي فقال : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفًا ، فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر .

وقال شفيق بن إبراهيم في تفسيره الحمد لله قال : وهو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك شيئًا لتعرف من أعطاك ، والثاني أن ترضى

بما أعطاك، والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه . فهذه شرائط الحمد :  
وأضاف القرطبي أن الله سبحانه أثنى بالحمد على نفسه ، وافتتح  
كتابه بحمده ، فمعنى الحمد لله رب العالمين ، أى سبق الحمد منى  
لنفسى ، قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى  
الأزل لم يكن بعله ، وحمد الخلق مشوب بالعلل . وقيل لما علم سبحانه  
عجز عباده عن حمده ، حمد نفسه بنفسه فى الأزل ، فاستفراغ  
طوق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف  
أظهر العجز بقوله « لا أحصى ثناء عليك » .

وقيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده  
وعجزهم عن القيام بواجب حمده . فحمد نفسه عنهم ، لتكون النعمة  
أهنأ لديهم ، حيث أسقط عنهم ثقل المنة .  
والحمد لله ، تقرأ برفع الدال ، ويكون معنى الآية ، فى هذه  
الحالة ، أنها تتضمن خبراً معناه أن الحمد من قارى الآية ، ومن جميع  
خلق الله ، أى أنه يقرر حقيقة اسنحقاق الله للحمد عن كل ما يحمد له  
سواه سبحانه ، ومن جميع خلقه ، فى حين أنه إذا قرأ الآية بفتح الدال ،  
كان معنى ذلك قوله « حمدت الله حمداً » فكان الحمد - بهذا المعنى -  
من القارى وحده .

وقال قوم إنما نقول الحمد لله تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيماً له  
وتمجيداً ، فهو خلاف معنى الخير وفيه معنى السؤال . وفى الحديث  
« من شغل بذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .  
وقال الطبرى ، على حد رواية القرطبي أيضاً ، الحمد لله ثناء  
أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال :  
« قولوا الحمد لله » .

ويقول الطبرى : معنى « الحمد لله » الشكر خالصاً لله جل ثناؤه ،  
دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأه من خلقه ، بما أنعم على

عباده ، من النعم التي لا يحصيها العدد . ولا يحيط بعددها غيره أحد .  
 في تصحيح الآلات لطاعته . وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء  
 فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم  
 العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ،  
 ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود ، في دار المقام من  
 النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ .

وعن الحكم بن عمير : إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت  
 الله في أمرك . قال وقد قيل : إن قول القائل « الحمد لله » ثناء على الله  
 بأسمائه وصفاته الحسنی ، وقوله « الشكر لله » ثناء عليه بنعمه وأياديه .  
 وعن كعب « من قال الحمد لله فذلك ثناء على الله » . وعن الأسود بن  
 سريع : ليس شيء أحب إليه من الحمد من الله تعالى ، والمالك أثني على  
 نعمته فقال الحمد لله .

وقال أبو جعفر : ولا تمنع بين أهل المعرفة باللغة العربية من الحكم  
 بالصحة لقول القائل : الحمد لله شكراً ، فقد تبين — إذا كان ذلك  
 عند جميعهم صحيحاً — أن الحمد لله قد ينطق به في موضع الشكر ، وأن  
 الشكر قد يوضع موضع الحمد ، لأن ذلك لو لم يكن كذلك لما جاز أن  
 يقال الحمد له شكراً فيخرج من قول القائل « الحمد لله » مصدر : الشكر ،  
 لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير  
 معناه وغير لفظه .

وقيل إن دخول الألف واللام في الحمد ، معنى لا يؤديه قول  
 القائل حمداً بإسقاط الألف واللام ، وذلك أن دخولهما في الحمد منبئ  
 عن أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله ، ولو أسقطنا عنه لما دل إلا  
 على أن حمد قائل ذلك لله دون المحامد كلها ، إذ كان معنى قول  
 القائل « حمداً لله . . . أو حمد لله » أحمد الله حمداً ، وليس التأويل في  
 قول « الحمد لله رب العالمين » تالياً سورة أم القرآن : أحمد الله ، بل

التأويل في ذلك ما وصفتنا من أن جميع الحمد لله بألوهيته ، وإنعامه على خلقه بما أنعم عليهم به من النعم التي لا تحصى لها في الدين والدنيا .  
والعاجل والآجل . ولذلك المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة على رفع الحمد من ( الحمد لله رب العالمين ) دون نصبها الذي يؤدي الدلالة على أن معنى تاليه كذلك أحمد الله حمداً . ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب لكان عندي محيلاً معناه ، ومستحقاً العقوبة على قراءته إياه كذلك ، إذا تعمد قراءته كذلك . وهو عالم بخطئه وفساده .

ثم قال : ما معنى قوله « الحمد لله » ؟ أحمد الله نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها ، ثم علمناه لنقول ذلك ، كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك ، فما وجه قوله تعالى ذكره ( إياك نعبد وإياك نستعين ) ؟ ، وهو عز ذكره معبود لا عابد ؟ أم ذلك من قيل جبريل أو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقد بطل أن يكون ذلك لله كلاماً .

قيل : بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ، ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو أهل له ، ثم علم ذلك عباده ، وفرض عليهم تلاوته ، اختباراً منه لهم ، وابتلاء . فقال لهم قولوا : ( الحمد لله رب العالمين ) وقولوا : ( إياك نعبد وإياك نستعين ) فقوله ( إياك نعبد ) مما علمهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بمعناه ، وذلك موصول بقوله : ( الحمد لله رب العالمين ) ، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا .

وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا ، ما ذهب إليه شيخه محمد عبده من أن الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل ، لأن كلمة ثناء تستعمل في المدح والذم معاً ، يقال أثنى عليه شراً ، كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « ال » التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما

في فهم الكلام إلا بدليل . وهو غير موجود في الآية . وهذه الجملة خبرية . واكتنفا استعملت لإنشاء الحمد . فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أى أنواعه تحقق . فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الخامدون . صفاته أجل الصفات وإحسانه عم جميع الكائنات .

وأضاف الشيخ رشيد : التعريف المشهور بين العلماء للحمد : أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى . أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره . أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الخامد أم لا . وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلاً له منزلة الفاعل في نفعه منه : إنما يحمد السوق من ربح . وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ، ليدخل في الحمد الثناء على صفات الكمال ، ولذلك حذف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله سواء كان من الفضائل – أى الصفات الكمالية لصاحبها – أم الأفضال ، وهى ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل ، والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار ما يترتب عليها من الأفعال الاختيارية ، وما عدا هذا من الثناء يسميه العرب مدحاً يقال : مدح الرياح ، ومدح المال ، ومدح الجمال ؛ ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء . وقيل هما مترادفان .

وقال النسبى : « الحمد هو الوصف الجميل على جهة التفضيل . وهو رفع بالابتداء وأصله نصب ، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة فى معنى الإخبار كقولهم شكراً وكفراً » والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر لله .

واللام متعلق بمحذوف أى واجب أو ثابت ، وقيل الحمد والمدح أخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ، تقول حمدت

الرجل على إناعامه ، وحمدته على شجاعته وحسبه .

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ، وهو بالقلب واللسان والجوارح . والحمد باللسان وحده ، وهو إحدى شعب الشكر ، ومنه الحديث « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده » . وجعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد بالجوارح لخفاء عمل القلب ، وما في عمل الجوارح من الاحتمال ، ونقيض المدح الذم ، ونقيض الشكر الكفران . وقيل المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً قادراً عالمياً أديماً أزلياً ، والشكر ثناء على ما هو منه من أوصاف الأفضال والحمد يشملهما . والألف واللام فيه للاستغراق .

وفي تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الحمد لله : « الثناء الحميل بكل أنواعه ، وعلى كل حال لله وحده ، ونثني عليه الثناء كله ، لأنه منشىء المخلوقات والقائم عليها » .

وفي التفسير الوسيط : الحمد هو الثناء على الحميل الذى يصدر عن المحمود باختياره من نعمة أو غيرها ، أما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء على صاحبها بالقول . أو مقابلة نعمته بعمل يدل على الاعتراف بها كآداب الجوارح ، أو الشعور القلبي بفضل صاحبها ، لذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة      يدى ولسانى والضمير المحجبا !

وفي تفسير حمزة وعلوان وبرائق :

« الثناء والشكر لله وحده ، الذى يدبر أمر المخلوقات ، ويربى عالم الإنسان والحيوان والنبات . فى الدنيا بالحياة والغذاء والتناسل ، فيمنحها من نعمه ، ما يحفظ بقاءها إحساناً منه ورحمة ، وهو وحده صاحب السلطان والقوة والتدبير يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، يوم يحاسب كل إنسان على عمله ، إن خيراً فخير ،

وإن شرّ أفسر .

فالمفسرون جميعاً قديمهم ومحدثهم ، المسهب منهم والموجز ، شغلوا بالجوانب اللغوية من الآية ، وتفسير لفظ الحمد ، وإيراد معانيه المختلفة والمقارنة بينه وبين لفظ الشكر ، والتساؤل أيهما أوسع نطاقاً وأشمل مدلولاً ؟ وأيها يصدر عن جوارح الإنسان جميعاً ؟ وأيها يصدر عن اللسان ؟ وبالتالي أيهما أعلى مرتبة ، وأعظم مكاناً ؟ ثم التساؤل عن جملة ( الحمد لله ) خبرية ، أم إنشائية ؟ واللام في لفظ الجلالة للاستغراق أم ليست له ؟ وقد غاب في خضم هذه البحوث ، وظيفة هذه الآية ، ودورها ، في حياة المسلم الذي يخاطب بها ، ويدعى إلى شامل معانيها ، واستخراج ما يكلف أداءه بهذا التأمل ومقدار ما يفيد منها .

وأول ما يجب أن يسأل نفسه المسلم قارئ هذه الآية ، وهو يتلوها : لماذا يطلب منا الله أن نثنى عليه ، ونحمده ، باللسان وحده أو باللسان والجوارح ، سواء كان الثناء على صفاته أو على نعمائه وآلائه ؟ أليس الله هو الخلاق ، الذي كانت هذه الأكوام التي لاندرى من أمرها إلا ما يشبه النقيير والقظمير قيمة ووزناً بعض صنعه ، وشيئاً من آثار قدرته ؟ فهل هو محتاج إلى حمد وشكر من جنس من مخلوقاته ، هو الإنسان الذي وصفه الله نفسه ، بأنه كان ضعيفاً ولاعزم له ، وأنه هلوع وجزوع ومنوع ؟

إن الفاتحة ، هي أم الكتاب ، وهي فاتحته ، وقد خصها القرآن الكريم بذكر خاص إذ قال : ( ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ) ، ولقد استفتحت هذه الفاتحة بـ ( الحمد لله ) ، وجرت السنة على أن يبدأ بها خطيب يوم الجمعة وكل صلاة جامعة خطبته ، وجرى المسامون على أن يبدأوا بها أول كلام لهم ، فما الحكمة في هذا كله ؟

الحكمة فيه ، على ما نرى ، وفقنا الله إلى الصواب — أن هذين اللفظين هما جماع الدين كله ، وخلاصة الحكمة الإنسانية بأسرها ، وأنهما يحويان من المعاني ما يقود الناس إلى العلم ما وسع الإنسان أن يعلم ، وإلى السعادة كأعظم ما تكون السعادة المادية والروحية : وتحقق لهم من القوة ، كأشمل ما تكون قوة النفس والعقل والبدن ؟  
ولنر كيف اجتمع هذا كله في حروف ثمانية ؟  
ولكن لن يتيسر لنا أن نستظهر هذه الحقيقة الكلية إلا بحقائق تمهد لها .

وأولى هذه الحقائق أن الدين ، في مفهوم الإسلام ، هو العلم والنور ، وأن الكفر والشرك هما الجهل والظلام .  
وقد تواترت آيات القرآن الكريم على بيان أن الدين هو العلم والمعرفة ، وأنه ضد الجهل والعمى ، والتخبط في الدياجير .  
ولم يبدأ الوحي بلفظ « اقرأ » عيشاً ، فقد استمرت الحركة الإسلامية منذ البعث حتى النصر الذي كتبه الله للإسلام ، ثم بعد ذلك حتى اتسعت حضارة المسلمين ، تنويراً وتعليماً ، وهداية ، ودرساً ، وبحثاً وجدلاً ، وسؤالاً وجواباً ، وشكاً ويقيناً .

فالدين جاء ليعلم الناس نواميس هذا الكون ، وليلفتهم إلى مظاهره ، وينبه أذهانهم إلى أحكامه . والسبيل الأوضح لفتح أبواب هذا العلم هو تقرير الحقيقة الأساسية أن لهذا العالم خالقاً واحداً ، وأن جميع ما نراه ونسمعه ونحسه ، ونشمه ونتذوقه من عمله ، بل حتى ما لا نفهمه ، ونعيه ، وما لا نحيط به ، ونقف عليه من الظواهر والأمور يرد إلى مسبب الأسباب ، وخالق الأكوان ، ومدبر العالمين ، وأنه أكبر من أن تعيه عقولنا ، وأن تدركه أبصارنا ، فإذا عجزنا عن أن نفهم هذه الحقيقة استحال علينا العلم سواء كان فلكاً أو رياضة أو طبيعة أو كيمياء أو طباً ، كما استحال علينا أن نستنبط للعلوم التي نسميها الآن العلوم الإنسانية من تاريخ

واجتماع وقانون : ذلك لأن الشرك بالله يفسد كل العلم إذ ينسب الظواهر والأطوار التي يراها لغير سببها ، فيزعم أن إلهه المصنوع من ذهب أو فضة أو من خشب أو عجوة ، هو الذي يسقط الأمطار ، ويصرف السحاب . أو يطلق الصواعق والرعود . أو يجلب النصر ، أو يهزم الأعداء . كما يبعد نحس الطالع ويشفي الأدواء . ( فلا إله إلا الله ) ليست حقيقة روحية تعبدية ، تلزم للصلاة الصحيحة ، وتقوم عليها العبادة السليمة . إنما هي حقيقة علمية . بل هي أم الحقائق العلمية . لأنها أكثر ثبوتاً . وأعظم صحة من أن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين ، أو من قانون الجاذبية أو النسبية ؛ لأن الإنسان الذي يعتقد أن التوسل إلى وثن . أو تقديم القرابين إليه استجلاباً لرضاه ، أو نقيماً لسخطه ، يمكن أن يبدل الجفاف ماء والجذب نماء ، لا أمل في أن يتعلم شيئاً نافعاً ، أو يعلم هو الآخريين شيئاً مجدياً ، لأنه لو علم شيئاً صحيحاً من حيث أسبابه ونتائجه ، لا يلبث أن يخلطه بوهم من أوهام عقيدته ، فيضيع علمه الصحيح ، الذي يعينه على إقامة حياته ثم تجميلها . وقد يقول قائل ، كيف يلزم الاعتقاد والإيمان بأن ( لا إله إلا الله ) ليتوفر علم صحيح ، ولتقوم حضارة عظيمة ، وقد كان أهل العصور القديمة وثنيين يؤمنون بعقيدة تقوم على تعدد الآلهة ومع ذلك شادوا المباني الضخمة ، وشقوا الطرق الواسعة ، واستنبطوا كثيراً من حقائق العلم وطبقوها في الزراعة والصناعة ، والطب والفلك ؟ والرد على ذلك أن عقيدة الوثنيين كانت تنطوي على بذرة عقيدة التوحيد ، كما انطوت على بذرة الدين السماوي وبمقدار ما اجتمع لهؤلاء من هذه العقيدة . التي تؤمن بوجود إله أعظم ، خالق للناس وللسموات والأرض ، استطاعوا أن يتقدموا . وإنك قادر أن تتبين آثار هذه العقيدة عند المشركين من عرب مكة وعرب الجزيرة كلها فقد كانوا مسلمون بوجود الإله الخالق . ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة دونه . والقرآن نفسه

شاهد على ذلك ، من ذلك : ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) ، ، ( وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ) ، ( أثنتكم لتشهدون أن مع الله آفة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ) ؛ وهذا سمووا بالمشركين ؛ لأنهم يشركون مع الله آفة سواه ، ويتحللون هذا الشرك أسباباً فتارة يقولون ( ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) ؛ وتارة يقولون ( أجمعنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ) ، فعبادتهم لغير الله سببها حينئذ أن يتخذوا من آلهتهم وسيلة إلى الله ؛ لأن آختهم أقرب إلى أفهامهم ، إذ يرونها بالعين ويمسكون بها باليد ، ولأن هذه الآفة هي آفة الأجداد والآباء ، وهم يحبون أن يكونوا على آثار آبائهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون .

من كل هذه الآيات يبين أن المشركين لم يكونوا يرفضون عقيدة الإله الأعظم ، ولكن كانوا يرفضون واحدانيته ، وهذه عاهة ملازمة للعقل البشرى ، في أطواره الأولى ، وهو لا يقوى على التخلص منها إلا بعد جهد ورياضة ، وهذا ما جاء الإسلام ليقود الناس إليه ، وليجملهم عليه . ومن وسائلها الناجعة لهذه الغاية الكبيرة ؛ فلسفة ( الحمد لله ) التي نحن بصدد بسطها .

فالعقل البشرى يؤثر التجسيد على التجريد ، ويقدم القريب على البعيد ، ويشغل بالمصلحة العاجلة ، عن الفائدة الآجلة . ومن هنا كان الإله الخاص ، أقرب إليه من الإله الأعلى ، وكان الولي أعظم أثراً من تعاليم رب العالمين ، وكان الدعاء إلى الإله في شأن منصب يرتجيه أو أو ربح يؤمل فيه ، أو امرأة يطمع فيها ، أو كربة خاصة يشكو منها ، أجرى على لسانه ، وأشغل لقلبه ، من الدعاء الذي تكون الغاية منه طاب التوفيق والسداد ، والهداية إلى الخير ، والنجاة من الشر . ولا يزال العامة ، وبعض الخاصة ؛ في الشرق والغرب ، وفي القديم

والحديث . سواء كانوا من أهل الأديان السماوية وأديان الحكماء والفلاسفة . يترددون على أضرحة الأولياء ، ويحملون التأمم والتعاويد والأحجية ، ولا يذكرون الله إلا قليلا . أو لا يذكرونه إلا مقروناً بولي من أوليائهم ، وكأن الولي هو الأصيل ، والله - والعباد به - هو وسيلة أو شفاعة .

ولذلك كانت فلسفة الشرك هي فلسفة الإنسان في أدواره الأولى ، والتي بقيت - على ما سبق من القول - رواسب منها في النفس الإنسانية إلى اليوم .

ومن هنا كان الإنسان يوفق في بعض نشاطه وتفكيره وإنتاجه المادى والأدبى ، لأن فيه آثاراً من الإيمان بالله المجرد السامى ، الذى يهدى إلى محبة الناس والإخاء بينهم ، والإيمان بالعدل والصدق والمساواة . ولكن هذه اللامحات الربانية ، لا تلبث أن تمحجبها سحب الشرك ، فتأفل شمس الحضارة الوثنية ، ويسودها الطغيان والاستبداد ، وشهرة الملوك والقادة ، وخوف الفقراء والضعفاء ، وتخبط الإنسانية كلها فى كل ما تقول وتعمل ، فهى لا تهتدى إلى الحقيقة العلمية ، ولا إلى الحقيقة الروحية ، وإن اقتربت منها خطوة ، بعدت عنها خطوات ، وبقيت هكذا حتى جاء الإسلام ، ليضع للشرك حداً حاسماً وقاطعاً ، مجرداً ملك الله من كل تجسيد وكل ارتباط بالزمان والمكان ، والشكل والصورة ، والحجم والوزن ، ورد كل الأسباب إليه ، وعودة كل الأمور له ( وإلى الله ترجع الأمور ) . ومنذ ذلك التاريخ ، تاريخ بدء الحركة الإسلامية ، بدأت الحركة العلمية ، وتحررت العقول والنفوس فى الشرق ، فانطلق الفلاسفة والمفكرون والمشرعون والمصلحون ، يقولون كل شىء فى كل شىء ، وتعددت المدارس ، وتنوعت المذاهب ، وتأمل أهل العقل فى السماء والأرض ، والمعادن والعناصر ، وغزت هذه الروح أوروبا غزواً هزها من الأعماق ، وأخرجها من الظلمات دفعة واحدة ، فغشيت لها عيون ،

وكرهتها أبصار ، فكان ما عرفته من ظلمات ديوان التفتيش ومطاردة المفكرين والأحرار ، حتى في ميدان الفلك والطبيعة ، وما قصص جليليو وكوبرنيكس وداروين إلا أمثلة مشهورة من مئات الأحوال المجهولة التي أخرجت العلم كثيراً . وما جنته الإنسانية اليوم ، من ثمار العلم الباهرة ، من بدء استعمال البخار ، حتى الوصول إلى القمر ، ومن خطوات الرياضة البحتة والتطبيقية . إلى نظرية النسبية ، ليس سوى الأثر المباشر لحركة تحرير العقل الإنساني ، على يد الإسلام ، الذي رفع عن الإنسان إصر الوثنية والشرك ، الذي حال بينه وبين معرفة أصول الأسباب ، وتبين علة العلة .

ولكن العقل الإنساني جهاز حديث ، وتحرره أحدث منه كثيراً بطبيعة الحال ، ولذلك لا يزال معرضاً للغفوة والكبوة ، ميبالاً إلى العودة إلى ما ألفه واعتماده ، وهو ما عبر عنه القرآن ( هذا ما وجدنا عليه آباءنا ) ، فهو في حاجة إلى تذكير وتنبيه وإنعاش ، وإلى تسديد وتقويم وهداية ، ومن هنا كانت حكمة ( الحمد لله ) .

فلا إله إلا الله ، هي الأصل والغاية ، بها أفاق العقل الإنساني من غفوته ، وخرج من الظلام الكثيف ، إلى نور الحرية الكاملة غير المحدودة ، فلا سلطان على الإنسان إلا للعقل ، إذ سقطت بهذه العبارة الصغيرة سلطة الملوك والقيصرة ، والأمراء والأكاسرة ، كما سقطت سلطة الكههان والأحبار ، ولم يعد الإنسان خاضعاً إلا لما يقنعه ، ولا تابعاً إلا لما يؤمن به ويهتدى إليه . ولم يعد هناك حرم ، لا يجوس العقل الإنساني خلاله ، فهو يقرأ بنفسه لنفسه ، ويسأل ، ويناقش ويجادل ، ويسفه ويؤيد ، ويراجع ما قاله ، ويعدل عنه ويضيف إليه ، ويحل محله سواء ، ويبدأ من جديد ، فما دام العلم غايته ، والحقيقة ضالته ، والمصلحة العامة حافزه ، فكل ما به حرام على الناس ، أي على المسلمين : دمه ، وماله وعرضه . فما دام يؤمن بالله ، أي ما دام عقله قد تحرر ،

وما دام أنه لم يسفك دمًا . ولم يهتك عرضًا . ولم يسرق مالا : فلا يحق لأحد أن يضع يده عليه . ولا أن يمسه بسوء : فإن اعتدى عليه معتد فكل المسلمين مطالبون بالدفاع عنه . وإلا كانوا آثمين ، يحاسبون عن تخليهم عن القيام بالتبعة . وكأنهم كفروا ( إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها : فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ) .

فالحمد لله جاءت أثراً لعقيدة لا إله إلا الله ، لا لتحمل الإنسان على الإقرار بعبودية الله ، وحسب ، والإذعان لإرادته وأحكامه فقط ؛ ولو وقف المسلم بالحمد لله عند حد هذا الإقرار المادى ، ولم يكن لها من الآثار على نفسه وعقله ما رسم الله لها ، وما قصده سبحانه منها ، لكان إيمانه لفظياً لم يخاطب القلب ، وكان من قبيل إيمان الأعراب : ( قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ) .

فالحمد لله هي حركة في ثلاثة اتجاهات :

هي حركة عقلية أولاً .

ثم حركة نفسية ثانياً .

ثم حركة وجدانية ثالثاً .

وقبل أن نفهم مدلول الحركة العقلية لعقيدة « الحمد لله » الإسلامية ،

يجب أن نعرف ما اندس في بعض العقائد السماوية من تراث العقائد الوثنية ، فإنه الوثني هو صورة من شيخ القبيلة ومن الملك والسلطان . فهو قوى ، ولكنه باطش مخيف ، لا يخيف أعداءه فحسب ، بل أتباعه معاً . وهو يقيم سلطانه على قلوب هؤلاء الأتباع بما يملك من قدرة على الإبادة والإذلال ، وطاقة غضبه تزلزل الصروح من قواعدها ، وتهز أقوى القلوب من مواضعها ، وهو شره لا يرتوى من سفك الدماء ، ولا يشبع

مما يقدم إليه من فروض الخضوع والطاعة ، ولا من آيات الخوف من شره . ولذلك تقدم له انقرايين بشرية وحيوانية إلى غير حد ، وقد يكون من هذه القرابين الأطفال ، كإله « مولوخ » إله العبرانيين ، والنساء والرجال والفتيات ، وهو غيور ، لا يكاد يقبل أن يوجد إلى جواره إله سواه ، فإذا تمت له السيطرة على عباده وعدهم بالنصر ، ومنحهم الغلبة على الأعداء مهما ظلموا ، بل إنه يرسم لهم سبيل الكيد للأعداء ، ويدعوهم إلى الغدر والسطو والنهب والحرق ، ويزين لهم الجرائم ، ويباركها من أجلهم ، وقد ورد في التوراة التي بين أيدي الناس الآن شيء غير قليل من هذه الصورة ؛ وقد بدأ أول العقد بين العبرانيين وإلههم على الوجه الآتي . جاء في الإصحاح السادس من سفر الخروج :

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لي شعباً ، وأكون لكم إلهاً » .

وتتوالى نصوص العقد ، فهو يحرض اليهود على سرقة المصريين حين يخرجون من مصر ، فيقول في الإصحاح الثالث :

« فيكون حيناً تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهباً ، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » .

وإلى جانب التحريض على السرقة نرى في سفر التثنية التحريض على الحريق والتدمير :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك بالتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالملك وعملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها ، بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة وكل

غنيمة فتضمها لنفسك ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إهلك .

وتأتي بقية النصائح والتوجيهات في الإصحاح السادس في سفر يشوع :

« واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها في خزانة بيت الرب » .

ولهذا فإنه من الجائز أن يقع بين هذا الرب ، وبين النبي موسى حوار يؤنب فيه النبي ربه ، فيقول مثلاً في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج :

« أرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . . فقدم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه » .

فجاء الإسلام لينسخ هذه الصورة ، ويمحو كل آثارها في نفوس الناس ، فإله المسلمين لا يجابيهم ولا يعدهم بالنصر ، ولا يمنيههم بالغبلة لمجرد كونهم مسلمين ، فقد أقام الإسلام حكم العلم ، وقرر أن للنصر قوانينه وأحكامه ، فمن يلزمها ، وينزل على مقتضاها يتحقق له نصر الله ، وأولى هذه القواعد أن يكون القتال من أجل الله ، وفي سبيل الله ، أي من أجل الحق ، وإقامة العدل ، ولنصرة الضعيف . (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) ، فمعنى آية (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) هو إقامة الإسلام ، أي إقامة العدل والحق . فليس يكفي أن يكون عدو المسلمين من غير المسلمين ، أو أن يكون مشركاً ، ليضمن المسلمون الفوز عليه ، إذ لا بد أن يكونوا أهلاً للنصر في ذاتهم من التقوى والصلاح ، والقوة والاتحاد ، والصبر في الشدة ، والعفو عند المقدرة ، والسهر في الليل ، واليقظة في النهار ، وإعداد أسباب النجاح والتماس وسائله .

وبعد فإنه المسلمين هو إله كل الناس ، المشرك والكافر والمؤمن والصالح . الأبيض والأسود .

فإذا اتضحت كل هذه الأحكام ، أمكن أن نفهم كيف أن ( الحمد لله ) تستدعي حركة عقلية من قائلها . فالمسلم يعلم أن لهذا الكون سننًا ، أى قوانين تضبطه ، وهى سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ( قلن تجد لسنة الله تبديلاً ) ، ( ولن تجد لسنة الله تحويلاً ) . وإنما مطالبون بأن نتأمل هذه السنن ، وأن تفهمها ، وأن نرى آثارها فى الكائنات ، وفى الأحياء وفى أنفسنا ، وفيما يطرأ من الأحداث وما يحد من الأمور ، لنكون قادرين على أن ننتفع بما سخره الله لنا من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والأنعام والأنهار ( أفلم يسروا فى الأرض ) .

فإذا حل بالإنسان شىء مكروه أو مرجو ، وقلنا الحمد لله ، فمعنى ذلك أننا فكرنا فى هذا الذى أصابنا ، ولم ندعه يمر بنا ، بل عرفنا أنه وقع تطبيقاً للقاعدة الكلية الكبرى ، أى أنه جاء طبقاً لقانون من قوانين هذا الكون المادية أو الروحية ، وأن علينا أن نعرف أسبابه ومقدماته ، لنستزيد من الخير إن كان خيراً ، ولندفع الشر إن كان شراً .

ولكن ما هو الدليل على صحة هذا التفسير ؟

الدليل على هذا أنه ما من شىء يطلبه الله من عباده ، أو يفرضه عليهم حتى العبادات والكفارات ، إلا والحكمة من تقريره خير العباد . فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها عبادات الغاية منها إصلاح نفوس الناس ، ومنحهم زيادة من القوة ، ولطف المعاملة ، وصدق العهد ، واحتمال الشدائد ، والسعى لخير الناس ، والإيمان بالحق والعدل ، وهم بهذا يكسبون كسباً شخصياً ، ومادياً ، إلى جانب المنافع العامة ، والفضل الروحي .

ويستفاد هذا من قوله تعالى : ( لن ينال الله لحومها ولا دماؤها

ولكن يناله التقوى منكم) . وما تقرره هذه الآية هو مبدأ عام : لا ينصب على الأضاحى التي يتقرب بها العباد إلى ربهم ، بل يشمل كل قربى إلى الله ، ولو كانت عبادة مسنونة ومفروضة على جميع المكلفين . فالحمد لله هي دعوة لتفكير العبد فيما يجرى في هذه الدنيا له ولغيره ، ليكشف ما ينطوى عليه ، فإذا تأمل فسيعرف . ويقوم الحمد أو الشكر ، مقام المعرفة : فالشاكر والعالم والشكور والعليم ، كأنهما مترادفان وإليك البيان :

في سورة المائدة جاء قول الله تعالى ( كذلك بين الله لكم آياته لعلمكم تشكرون ) ، وجاء في سورة الأعراف قوله عز و علا : ( كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ) وفي سورة لقمان : ( ليرىكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ) ، وفي البقرة : ( ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلمكم تشكرون ) . فالشكر هنا يأتي دائماً ، بعد موضع تكشف فيه الحقائق للناس ، فالله يبين للناس آياته ، ليرىهم إياها . ويتبع هذا كله بما معناه ، أن النتيجة لهذا العلم ، أن تشكروا ، أي أن تعلموا العلم الذي ينطوى على الحمد لله والشناء عليه والشكر له . لأن غاية العبادة أن يعرف الناس حقيقة ربهم ، وأن يزدادوا علماً بأحكامه ، فحينما يصلون إلى مرتبة العلم يشكرون ، أو حينما يصلون إلى مرتبة الشكر يعلمون . ولعل هذا المعنى يزداد وضوحاً في قوله تعالى في سورة إبراهيم : ( إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ) ، وقوله في سورة لقمان : ( ليرىكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ) . ويصف الله تعالى ذاته بقوله : ( ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ) ، ثم ( وكان الله شاكراً عليمًا ) . واقتران العلم بالشكر يدل على أنهما بمعنى واحد . أو أن أحدهما يؤدي إلى الآخر ، أو يقترن به أو يقوم مقامه ، فلا يشكر أفضال الله ونعمائه وآلاءه إلا من عرفها ، ولا يعرفها إلا من شكرها . ويزيد ذلك

المعنى وضوحاً قوله تعالى : ( ومن شكر فإنما يشكر لنفسه : ومن كفر فإن ربي غني كريم ) : ( لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ) فإن الشكر هو بمعنى العلم ، فإنكم لا تعلمون إلا لتزدادوا فضلاً ، فالخير عائد عليكم من هذا العلم ، وكلما شكرتم ازددتم فضلاً ، لأنكم تزدادون علماً . والله تعالى لا يحتاج إلى شكركم وإنما أنتم المحتاجون إلى هذا العلم . وقد يمنحكم الله أفضالاً ، ويبسط لكم في الرزق والصحة ، لتروا هل تعلمون قيمة ما أعطاكم فتحسنوا الانتفاع به واحفاظة عليه فتزدادوا خيراً : ( هذا من فضل ربي ليبلونى أشكر أم أكفر ) .

فالحمد لله ، هو عملية عقلية ، لأنه لا يتأتى إلا لمن تأمل في الكون ، وشغل عقله بأسراره : وتحمل النصب والتعب : ليقف على أحكامه ، وهو كلما بحث وتأمل زاد الكون أمامه اتساعاً : وزاد في عينيه عظمة وضخامة ، فإذا به وحده محمول على الشعور بعظمة خالق هذا الكون ، فيحمله شعوره هذا بدوره إلى التعبير عنه بقلبه ولسانه ، ولا يزال في حلقة مفرغة يتأمل الكون ، ويكشف أسراره ، فيزداد شغفاً بالبحث ، والبحث يزيد به بالكون وخالفه إعجاباً وتقديراً وتقديساً ، ويزداد رغبة في مواصلة النظر في قوانين الدنيا ، فيزداد علماً ، وكلما علم زاد تقديره وحببه لهذا النظام الدقيق الذى يعلو على كل عقل وفهم . والذى يعلن للعالم الشكر عظمة الله غير المتناهية ، وقدرته غير المحدودة . فيزداد هو قوة إذ يزداد علماً أو إيماناً أو شكراً ، كيفما شئت .

فالحمد لله هي حافز متجدد لعقل الإنسان ، يدفعه إلى مواصلة التفكير ، وإلى الإصرار على النظر ، وعلى استحثاث الخطى في استكناه حقائق العالم الذى نعيش فيه ، والذى أخبرنا الله سبحانه تعالى بأنه سخره لنا وأنه لا سبيل إلى الانتفاع بهذا التسخير إلا بمحاولة تبين المفاتيح المفضية إلى قواه الخبوءة ، وثوراته المكنوزة ، وقد أجمل الله سبحانه وتعالى هذا كله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

أما أن ( الحمد لله ) هي حركة وجدانية ، فنحن في حاجة إلى تشبيه . لتوضيح المقصود من ذلك .

أفرايت اثنين يقفان أمام منظر طبيعي جميل . أو لوحة فنية بارعة ؟ ثم أرايت أحدهما يمر بالمنظر أو اللوحة لا يحس بما فيهما من جمال . ولا يستمتع بما يحويانه من تناسق تطيب له النفس ، ومن لطف اللون أو الحركة . مما تصفوه المشاعر ، وتعلو به عن مشاغل الدنيا ، وهمومها ، في حين يقف الثاني مأخوذاً بالجمال ، لا يكاد يستطيع الحركة ، فينسى نفسه . وينسى من حوله وما حوله ؟ فإذا أفاق بعد طول الوقفة ، أحس بالراحة والسعادة والتموة معاً ، وكأن هذه الوقفة زاد ماديّ صرف ذهنه عما كان يشغله . وعلا بنفسه عن سائر الناس ، فأصبح أكثر قدرة على مواصلة السعي في الحياة ، وأعظم إحساساً بما فيه من حب للخير . وشعور بالجمال .

هذا بالضبط تفسير ( لئن شكرتم لأزيدنكم ) ، فإن وقفة صاحب الإحساس أمام المنظر الجميل ، واستغراقه في تأمله واستشعاره بالسعادة والغبطة في الاتصال به والنظر إليه ، هي بالضبط ما يساوي ( لأزيدنكم ) فكلما زاد الإنسان إحساساً بالجمال زاد إحساسه دقة وزاد حبه للجمال ، فزاد شعوره رقيماً ، وزادت نفسه اتساعاً ، وهو إذ يقف أمام المنظر الجميل ، يقف شاكراً ، مادحاً ، مثنياً ، مقدرأ ، وإن لم يقل بلسانه حرفاً واحداً ، ولكن وقفته ، ونسيانه كل شيء ، واكتفائه بالنظر وارتفاعه عن الدنيا بكل أصواتها وحركاتها ، كل ذلك هو الشكر الناطق ، والحمد المسموع ، والثناء الملموس .

وهو لا يشكر ، حتى يزداد في اللحظة سمواً وقوة ، وهو لا يزداد سمواً وقوة ، حتى يزداد حباً وتقديراً ، فهي الدائرة المفرغة لا يدرى أين طرفاها : تشكر فتزداد ، وتزداد فتشكر ، وهكذا لاتزداد قوة ، إلا لتزداد قدرة على الشكر ، لأنه عنوان القوة ومظهرها الخارجي . أما من يمر بلوحات الكون

وأسراره ، وهو أعمى لا يرى ، فهو كالحجر الأصم الأبكم ، لا يعي ولا يشعر ، فتسد أمامه مصادر الإلهام ومنابع القوة ، ولهذا فالكون يقول له : إني عنك لغنى !

أما أن الحمد لله حركة نفسية ، تأتي بعد التعقل والإحساس .  
فذلك لأن الإنسان في هذا الكون الفسيح المتراخي ، حقير لا سند له ، خائر لا هادي يأخذ بيده ، يبدو له كل شيء غامضاً ، ويبدو له كل شيء في هذا العالم أقوى منه وأعظم ، ثم إن الأحداث : لاتقف لحظة ، فهي في استمرار متصل ، وتطور دائم ، وتغير لا ينتهي ، وهذه الحركة تسبب للكائن الحي ، من الآلام والأحزان والخاوف ، ما لا قبل له به وحده ما لم يعنه معين . فإن هذه الحركة . تنزع الإنسان من المكان الذي يألفه ، والجماعة التي يعرفها ، والحقائق التي يطمئن إليها ، والوسائل التي يحسن استعمالها ، وتلقى به في بحر متلاطم من الصور الجديدة ، والعلاقات الطارئة ، والأفكار المستحدثة وتطلب منه في الحال أن يتكيف مع هذا الحديد ، وإلا ابتلعه الموج وأطبقت عليه العوالم الجديدة فغيبته في جوفها .

ولذلك فإن الإنسان في حاجة مستمرة إلى أن يتبين حقائق ما يجد به من الأحداث وما ينزل بساحته من النوازل ، فإن لم يتبين أن هذا التغير المستمر ليس شراً وليس خيراً ، وأن هذا العالم ليس عدوه وليس صديقه ، وأن مصدر القوة نفسه ، وموطن الطاقة قلبه ، ومنبع النور عقله ، وأن عليه أن يرى في كل ما يصيبه نصيباً من الخير ، وبذرة للأمل ، لا على سبيل العزاء والتسرية ، بل على سبيل استقرار الواقع الصادق ، إذ أن (مع العسر يسراً) ، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) حقائق علمية ، وأنها تمنح العالمين بها ، والواقفين عليها ، قوى لا حد لها .

وليس ثمة عدو أقسى للنفس الإنسانية من اليأس ، وليس ثمة داء أشد فتكاً بها من الخوف ، ولا يحمي الناس ويحصنهم من اليأس والخوف

إلا فهم صحيح . وتطبيق سليم لحكمة ( الحمد لله ) ، فإنها تبتدئ  
الظلام ، وتمشع لها الظلمات وتجدد لها الآمال . وتتسع بها الدنيا ،  
فيزداد الإنسان قوة . ولا يزداد قوة إلا وقد ازداد قدرة على الإعجاب ،  
بما في هذه النفس الإنسانية من طاقات لا يعرف الإنسان مداها ، لأنه  
لا يفكر فيها ، ولا يمد يده نحوها ليستخرجها .

فالحركة النفسية التي تبعثها ( الحمد لله ) في الإنسان ، أو تبعثه هو  
على إتيانها ، ليس مجرد العزاء الذي يسبغه التسليم لقدر الله ، والإذعان  
لحكمه باعتبار أن التمرد عليه معصية ، ومعصيته لا تقع منها ، ولا جدوى  
فيها ، بل إنه حركة إيجابية قوامها المبدأ القرآني ( وعسى أن تكرهوا  
شيئاً وهو خير لكم ) ، ( ونبلوكم بالشر والخير فتنة ) ؛ فالمسلم الذي  
يقول ( الحمد لله ) إذا أصابته مصيبة ( الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا  
إن الله وإنا إليه راجعون ) يقولها ليستخرج منها قوة ، لا لأنه يقارن نفسه بمن  
هم أشد منه ابتلاء فقط ، بل لأنه يؤمن بأن في تضاعيف ما يبدو لنا  
شراً خيراً من نوع ما ، وأن المؤمنين بينهم إيمانهم عن أن يفرحوا بما آتاهم  
الله ، ولا يأسوا على ما فاتهم فالحياة ليست كسباً فقط ، ولا فوزاً دائماً ،  
وإنما هي قبض وبسط ، وإدبار وإقبال ، وإن الإنسان يحكم على الأمور  
بمقياسه الصغير ، وينظر إليها بمنظاره القصير ، في حين أن الواجب  
يقتضيه أن ينهض بواجباته ، ويؤدي تكاليفه ، حتى يبدو الخير ، في  
جملة الحياة التي يحياها الفرد ، ثم في جملة الحياة الإنسانية ، باعتبارها  
كلاً لا يتجزأ تطبيقاً للمبدأ المقرر في الآية الكريمة ( من أجل ذلك  
كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض  
فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ) .

فالحمد لله - إذن - هي مذهب كامل ، من مذاهب الحياة  
والإيمان ، يتفرع أساساً عن المذهب الشامل الكامل مذهب الإسلام  
القائم بدوره على أن لا إله إلا الله ، وأنه مذهب ذو ثلاث قوائم ، قائمة

عقلية : وقائمة وجدانية روحية وقائمة نفسية ذاتية ، وأن غاية المذاهب  
حماية العقل الإنساني والنفس الإنسانية في مواجهة ما يهب عليهما من  
رياح الأضاليل والأكاذيب ، ولو تسرت في شكل العلم ، واختفت  
وراء اسمه ، وتوفير الحيوية له : لكي يقف ديدباناً ساهراً لا يغفل ،  
وحارساً لا ينتابه تعب ولا ميل للراحة ، بل لا يدع العقل الإنساني ينزلق  
إلى الغفوة . أو يتوق إلى الراحة : إنها ناقوس يدعو إلى التأمل الدائم ،  
والتفكير المتصل ، إنها دعوة لتدبر آفاق الأرض والسماوات وآفاق النفس  
الإنسانية التي تشبه الأرض والسماء اتساعاً ، فالحمد لله أولاً وآخراً .